الفصل الثانى

التاريخ الجاهلى

لايدين التاريخ العربى بشىء للتاريخ الاغريقى ، وبالقليل للتاريخ الفارسى، إن كان يدين له فعلا ، وذلك أمر واضح : ولكنه يظهر أيضا مستقلا عن التواريخ العربية الجاهلية . ولدينا القول الشائع « الشعر ديوان العرب » ، أى سجل أعمالهم . وهذا القول الذى يبدو عليه أنه قديم ، يقتضى أنه لم توجد سجلات أخرى فى الحجاز . ويؤكد هذا القرآن ، الذى كثيرا ما يتهم المكيين بالأمية . والنقوش الجاهلية المدونة بالعربية التى جعل منها القرآن اللغة الفصحى غاية فى الندرة : من الندرة بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون تجارب لكتابة لغة لم تكن تستخدم فى ذلك الغرض من أن تكون أمثلة لعمل مألوف : لأن أحد هذه النقوش مدون بخط سامى آخر . والنصوص النبطية التى عثر عليها دوتى **Doughty** فى شمال بلاد العرب مدونة بلهجة آرامية مختلطة خلطا عجيبا بالألفاظ والأقوال العربية . وهناك اقتراب شديد من العربية الفصحى فى بعض النقوش الدينية **Confessionad** التى عثر عليها فى جنوب بلاد العرب مدونة بالخط الحميرى أو العربى القديم ؛ أما النقوش الكثيرة الاخرى التى عثر عليها الرواد فى شمال بلاد العرب فمدونة باللهجات الاخرى ، ولها أهميتها العظيمة لتنوع الخطوط المستعملة، ولكنها قلما تدل على وجود أدب .

كذلـك لا تـدل خصائص الخرافات الجاهلية المدونة فى أمثال كتاب تاريخ مكة للأزرقى . وتواريخ الطبرى وياقوت الجاهلية ، والمجموعات الكثيرة المحفوظة فى كتاب الاغانى ، لا تدل على وجود ما يستحق أن يسمى تاريخا . بل إن الوثائق التى نجدهـا أحيانـا منسوبة إلى ذلك العصر ، تثير قدرا كبيرا من الشك . وقد أدخل الدينورى المؤرخ واحدة من هذه الوثائق فى تاريخه . فقد أرسل من يلقب الكرمانى، فى أواخر العصر الاموى ، إلى أحد أبناء أبرهة بن الصباح ، آخر ملـوك حمير (كما يقول) ، وكان يقيم فى الكوفة ، يسأله أن يعيره صورة المعاهدة التى عقدت بين ربيعة واليمن فى العصر الجاهلى ، فأرسلها إليه : فقرأها الكرمانى على أشراف ربيعة واليمن . والوثيقة مسجوعة ، وتحتوى على إشارات إلى شعائر وثنية مختلفة ، وإن بدأت بالعبـارة « بسم الله العلى الاعظم ،الماجد المنعم » وتستشهد « الله الأجـل ، الذى ما شاء فعل » . ويسمى الملك الذى عقدت المعاهدة أمامه تبع بن ملكيكرب ، ولا تبين علاقته بالمتعاهدين .

وتاريخ الدينورى ، كما سنرى هنا ، قليل القيمة ، إذ إن هذه الوثيقة ليست أقـدم مـن المـؤرخ كـثيرا ، مثلها فى ذلك مثل كثير من الاشعار والرسائل التى يستشـهد بها فى أخباره ، فيما يبدو. وحقا يشك فى صحة نسبة الكتاب نفسه إلى الديـنورى . والصعوبات التاريخية المتعلقة بهذه الوثيقة لها خطرها، حتى ولوكان ما بهـا من آثار صحيح ، حين تقرر كيف خلطت القبائل المتحالفة دماءها بالخمر ، ثم شرحها الفريقان كلاهما ، وجزت نواصيهما ، وقلمت أظافرهما ، وجمعت ذلك فى صر ، ودفنته تحت ماء غمر : لانه توجد أدلة على أنهم كانوا يفعلون ذلك لتوكيد المعاهدات . ولكن لا شك أن الامر الذى يثير أعظم الدهشة فى هذه الوثيقة التزام السـجع فى عربيـتها الفصحى . كان يجب أن نتوقع وجوده فى إحدى اللهجات

المستعملة فى الآثار التاريخية إلى عهد قريب من ظهور الإسلام . ويثور الشك نفسه فى الاحــوال الاخرى التى يورد فيها المؤرخون تآليف جاهلية نثرية . ومن الواضح أنـــه فى هذه الحالة لم يذكر الموضوع الذى عقدت فيه المعاهدة ، وإن بدا ذلك على جـــانب كـــبير من الأهمية . ويذكر الشهر الاصم ، وهو رجب ، ولكن لا تذكر السنة.

وإذا تصـــادف أن كانت هذه الوثيقة صحيحة ، وجب أن نراجع كثيرا من أفكارنا : لأن المؤرخ لا يذكر هذا الحلف باعتباره مثلا وحيدا ورد إلينا من العصر الجاهـــلى مـــن هذا النوع من الوثائق ، وإنما باعتباره أمرا طبيعيا أن تحفظ أعمال الجاهليين فى موضع ما : ويمكن أن يؤلف تاريخ دقيق ومستمر بعض الاستمرار من مجموعـــة مـــن أمـــثال هذا الحلف . وحقا لا يشكو مؤرخو هذا العهد من نقص الســـجلات ، كما شكا المؤرخ الأرمينى موسى الخورينى **Moses of Khorene** وهـــم مؤمنون كل الإيمان أن الوسيلة الصحيحة لنقل التاريخ هى الرواية لملاحظة غيـــاب الراوى. بل عندما وجدت المدونات من أى نوع ، كان المسلمون أميل إلى نسيانها: إذ إنها تنتمى إلى ماض ، طرحوه وراء ظهورهم. وكانت المآثر التى دونتها الآثـــار ، كمـــا ســـنرى ، مآثر آلهة وثنية ، صارت الآن ما يسميه الإسرائيليون المحظورات . ولكن الإسلام أدى أيضا إلى هجرة واسعة، وكان ما جلبه المهاجرون معهم دينا جديدا ، لا صلة له أو على صلة صغيرة بالدين القديم .

وســـأوجه الانظار فيما بعد إلى أول هذه الاسباب لغموض التاريخ الجاهلى كما يظهر فى المجموعات العربية . ولا بد أن السبب الثانى ، وهو التنقل والهجرة ، أسهم إسهاما قويا فى بلوغ تلك النتيجة . وعُدّت المدينة موطن المعرفة ، كما نعرف مـــن الامام الشافعى وغيره : وبرغم ذلك قلما ترجع هذه المعرفة إلى ما قبل هجرة

النبى إليها ، لأن ذلك الحادث أدى إلى تغيير جوهرى فى سكانها. فترح كثير من سكانها القدماء : واكتظت المدينة بالمهاجرين الداخلين فى الاسلام . وتلا ذلك سريعا الفتوح الاولى للخلفاء، أو صاحبها هجرات قبلية : ولكن القبائل احتفظت بعزلتها إلى درجة ما ولحقبة طويلة فى مواطنها الجديدة . ولا بد أن الحالات التى كانت يحتفظ فيها المهاجرون بمدونات يحملونها معهم كانت نادرة ، إن وجدت إطلاقا . وكان فى جنوب بلاد العرب نقوش تاريخية دون فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وأحيانا عزائم مجالسهم . والمسألة هى إذا ما كان لديهم ، بالاضافة إلى مدوناتهم على النحاس والحجر التى لا يمكن أن تقرأ إلا فى المواضع التى نُصبت فيها، أدبٌ ، أعنى نسخا من النصوص أنفسها مدونة على مواد أقل رداءة من السابقة، من البردى ، والرق ، والسعف . ويومىء رحالة محدث إلى وجود مثل هذه النصوص ، ولكن إيماءته غامضة ولم تُحقَّق . وقد اعتبر باحث ألمانى فى نقوش جنوب بلاد العرب وجود مثل هذا الادب أمرا مؤكدا ، وقد ذكر كتاب الاغانى فعلا نصوصا حميرية مدونة على مواد يستطاع حملها : ومهما يكن الأمر فيجب أن تترك هذه المسألة الآن دون أن يقرر فيها أمر ما . أما ما يوضحه اكتشاف النقوش وحل رموزها فهو أن عملية تسجيل الاحداث وُجدت فى تلك المنطقة منذ زمن لا تعيه الذاكرة .

ويبدو أنه لم يعن بهذه الآثار إلا اثنان من المؤلفين العرب : الهمدانى ، مؤلف صفة جزيرة العرب ، ورسالة عن الابراج والحصون فيها : لم يصل إلينا منها غير جزء صغير ؛ ونشوان الحميرى ، مؤلف معجم يلقى بين حين وآخر أضواء على لغة تلك النصوص . ولا تزال بعض النقوش التى درسها الهمدانى موجودة . وترد بين حين وآخر شواهد من أشعار يظن أنها منظومة باللغة العربية الجنوبية عند النحويين، الذين احتفظوا ببعض الصيغ النحوية التى أيدت النقوش بعضها ، ومن المؤكد

صحة بعضها الآخر ، وإن لم نجد نقشا إلى اليوم يحتوى على أمثلة منها . وقد أحضر ولستد Wellested وكروتندن Crutenden الضابطان الرحالتان الانجليزيان النسخ الاولى من هذه النصوص إلى أوروبا . وكان أول من فسرها فى شىء من الصحة فى ألمانيا ، هو أزياندر Osiander ، الذى نُشر كتابه بعد وفاته. ومن الطبيعى أنه اقترف عدة أخطاء ، بسبب توحيده بين العبارات السبئية والعربية الفصحى . ولذلك ترجم عبارة خاصة بقوله « لأن الله استمع إلى طلبه » ، على حين أن المعنى الحقيقى هو « مأمورا من الكاهن » . وقد جمع العالم الفرنسى هليفى Halévy والرحالة النمسوى جلازر Glaser مجموعات كبيرة من النقوش أو نسخا منها . وسرعان ما كشف النقاب عن أربع لهجات ، هى لغات الممالك العربية الجنوبية الأربع التى لا حظها الباحثون الاغريق: وبرغم ذلك من المستطاع تصنيف هذه اللهجات فى صنفين، نسميهما مجموعة (س) ومجموعة (هـ) وفقا لاستخدام كل من هذين الحرفين فى بعض اللواحق التى تلصق فى أول الكلمات أو آخرها. ومن الممكن تتبع تقدم الدراسة فى النشرات البطيئة الظهور التى كانت تصدرها هيئة المنقبين الفرنسيين French Corpus Inscriptiorum ، والتى تداول الفصل الحميرى منها ثلاثة من المحررين ، وهو الفصل الذى يتوقع العلماء استمراره فى شغف .

ولا تزال واحدة من الممالك الرئيسية الأربع التى تنتمى إليها هذه النصوص – لان عدد الممالك كان فعلا أكثر من ذلك كثيرا – تحتفظ باسمها باعتباره إقليما أو منطقة من بلاد العرب . تلك هى حضرموت ، المذكورة فى العهد القديم . وكثيرا ما تذكر سبأ فيه أيضا، وإن كان موقعها يبدو مخالفا لما تزعمه النصوص . ومَعين أقل شهرة ، ولكنها لها أثرها فى المدونات الانجيلية . وعرف الاغريق قتبان ،

ولكـــن التاريخ الخارجى سكت عنهم عند غيرهم. وبرغم ذلك أمدتنا هذه المملكة بنصـــوص فى الآثـــار أغـــزر كثيرا مما أمدنا به غيرها . وحين تحل مشاكل النحو والالفـــاظ ، إن حلت ، ستعرف عن منشآت الجمهورية القتبانية أكثر مما نعرفه عن أيـــة دولة أخرى من هذه الدول ، بالرغم من أننا ربما لم نعرف الكثير عن مهارتها الحربية .

وقـــد نسمى كثيرا من النقوش سجلات تاريخية ، وإن كانت تتألف عادة من أســـباب تقـــديم بعض النذور إلى الآلهة. وتستهل مثل هذه النقوش باسم أو أسماء مقدمـــى النذور، ويليها قائمة بالنعم التى استحق الآله من أجلها النذور . ومعظم هذه النعم شخصى : إكسابهم حب سادتهم سبب عام جدا للنذور . وسجل على هـــذه الآثـــار كـــثيرا ايضا النجاح فى المغامرات التجارية ، والشفاء من المرض ، والحصول على الحبوب وموارد المياه .

وتنتمى إلى هذا الصنف ، النصوص التى من هذا النوع ، وكثير مما اكتشف أولا وأُرســـل إلى أوروبا ، ومن الطبيعى أنه لا يستطاع اعتبارها تاريخية : وإن كان الضـــوء الـــذى تلقيه على الاحوال الاجتماعية بل والسياسية له شأنه فى الغالب، والاعـــلام المدونة فيها لها أهميتها من نواح كثيرة : وبرغم ذلك ، توجد نصوص ، طويـــلة أحيانـــا ، تعـــالج أمورا لها أثرها فى الملوك والمجتمع بأسره ، وتستحق هذه النصوص أن تسمى تاريخية . ولم يُبْعَد النسخ والصور . وقد أسعدنا الحظ فى أحيان قليلة بالحصول على مجموعة كاملة من النقوش التى تعالج أحداثا واحدة أو مجموعة مـــنها : ومن الممكن الافادة من المجموعة الاخيرة فى إقامة جداول للدول وفى بعض الاحيان فى اكتشاف الاحداث التى ميزت ظهور الدول، أو اتســـــــاع رقعتها ، أو انهيارهـــا . وهـــى تعـــالج الشئون الداخلية خاصة ، كما نتوقع من سياسة هذه

الــدول ؛ فتســجل ألوان الكفاح المدمر الناشبة بين المجتمعات العربية ، ولا تتصل بالشــئون الخارجيــة إلا بعــد التدخل الحبشي . والغريب أنها خالية من الزخرف والمبالغة . فيما يبدو. ونمثل لذلك بمجموعة النقوش الحميرية ١٤٥٠ م C.I.H. : أهــدى بعض الاشخاص الذين ضاعت أسماؤهم تمثالا ذهبيا لمولاهم تَعْلَب ريــام ، أو تَعَلَّب ريام : ويبدو أن كلمة « مولى » تعنى إلها صغيرا .

« لأنه أعان بنى حاشد فى مدينة ناعط على قبائل حمير . تقدم مئتان وتوغلوا فى أرض حمــير، حيــث ذبحوا رجلا ؛ ولأن مئة وخمسين تقدموا إلى مارد فى أرض ألــبان، حيــث أسروا رجلين . ولأن خمسين توغلوا فى منطقة دلج ، حيث ذبحوا رجــلا . ولأنهم هاجموا الحبشة فى أرضه ... وذبحوا رجلا فيها . ولأن جماعة من الــبدو ، مــئة مقاتل وعشرة، أغاروا على بَرَك ، وقتلوا رجلا. ولأن سادته ، بنى همــدان ، قدمــوا إليه خيلهم وبسبب هذه الهدية ذبح فهدين ، وجميع ... فى هــذا ... » ثم يتقــدم المؤلف إلى بعض النعم الشخصية التى أنعم عليه بها أو يضرع من أجلها .

وفى C.I.H. نقــش طويــل آخــر (رقم ٣٣٤) من النمط نفسه ، وقد ضــاعت سطوره الأولى ، ولكنه يدون قائمة بالخدمات التى أداها الإله تعلب ريام نفســه . وقــد قدم سعد أحرس بن غضب، المذكور بعد ، بعض القرابين ، ولعلها تمثال ذهبى ، تشريفا للإله ، لأنه :

« حمــاهم فى الحمــلات الــتى قاموا بها لمعاونة سيدهم شعر اوتر ملك سبأ وريــدان ، ابــن ألهــان نبفان ، ملك سبأ ، ولأنه أنقذ سيدهم شعر أوتر وجنده

السبأيين والحميريين ، عندما خرجوا لقتال الاعز ملك حضرموت ، وجنده من الحضرميين (؟) : عندما هزم الاعز وجنده فى ذات غراب هزيمة نكراء .

وقد عين شعر أوتر سعد بن غضب للأشراف على معسكر الملك والفريقين من الجند: ووضعه على رأس منتى محارب من بنى هملان . فهاجم بنو ردمان المعسكر فى يوم تقدمه : ولكن سعد أحرس بن غضب هاجم بكل من أتى معه من بنى هملان ، وأجلوا بنى ردمان عن المعسكر وقتلوهم ، بينما سلم معسكر سيدهم شعر أوتر وفرقتيه .

واعترافا بالجميل أشفى تعلب ريام خادمه سعد أحرس بن غضب ، من جرحين أصيب بهما عندما هاجم بنو ردمان فى المعسكر . ولعله يواصل حمايته شعر أوتر فى مدينتيه ماوة وسوّار ، وينقذه. ثم أطرى سعد أحرس بن غضب قوة وقدرة تعلب ريام، رب ترعة ، لأن سيدهم شعر أوتر وفرقتيه عادوا سالمين من جميع هذه الاعمال : ومنح تعلب خادمه سعدا عودا سليما ، وبضائع وأسرى وغنائم أرضته. ولعل تعلبا ... إلخ » .

والغرض الاساسى كما سنرى من هذه النصوص النذر ، أى تقديم الشكر لإله خاص : فيدوَّن السبب ، الذى يصير ذا أهمية تاريخية عندما يكون خدمة ذات صبغة عامة ، كما فى تلك الحالات التى كانت المساعدة فيها فى الحرب . ونقترب فى نقش جبل مأرب الثانى من الوثائق التاريخية الحقة ، إذ إن السجل ليس جزءا من شكر الإله . وهو من الحقبة المسيحية ، أى عصر الاحتلال الحبشى ، ويفتتح افتتاحا مسيحيا* .

---

* See Glaser's Reise nach Marib, 1913 , p 148.
انظر جلازر : رحلة إلى مأرب ، ١٩١٣ م ، ص ١٤٨ .

« بقـوة وجـلال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس . نقش هذا الأثر أبـرهة ، ممـثل الملك الحبشى رمحيس زبيمان ، ملك سبأ وذوريدان ، وحضرموت والـيمن ، والـبدو فى الجبل وتهامة. ونقش هدا الحجر عندما عين يزيد بن كبشة مشرفا، وكانت أعماله مناقضة لتعهده . فقد عين خليفة على بعض القبائل، وقائدا للجـند إلى جانب الخلافة . وكان معه عدد من القبائل والامراء (تعدد أسماؤهم) . وعـندما أرسل الملك جريحا ذو زنبور للطواف فى المنطقة الشرقية بأمر من الملك ، قتله يزيد » . ويستطرد الخبر بعد أن يصف بعض أعمال يزيد هذا الأخـرى : « ثم سمع الملك الأخبار ، واجتمع الاحباش والحميريون ، آلاف منهم ، فى شهر ذو قيـازان من سنة ٦٥٧ ، وهبطوا فى وديان سبأ ، ونظموا أنفسهم من سروة على نـبط إلى عـبران ، وعـندما بـلغوا نبط أرسلوا رماتهم ضد قبيلة ... علوة ، فاستسـلمت » . فعـاد يزيد هذا إلى الطاعة بعد وقت قصير ، عندما انتشرت الاخبار بتحطم السد. يلى ذلك بعض التفاصيل العسكرية ثم يوصف إصلاح السد وصفا مسهبا .

وهذا النقش ، البالغ ١٣٦ سطرا ، والمؤرخ بـ ٦٥٨ — ٥٤٣ م ، مدون بـلهجة غاية فىالصعوبة . ولعل اضطراب الاسلوب إنما هو واضح بسبب معرفتنا الناقصـة أشـد النقص بلغته ، أو لأنهم لم يكونوا قد بلغوا مبلغ الفصاحة فى تلك الـلهجة . وهـو يمـثل تقدما على النمط الاقدم ، حيث لم يكن الغرض تسجيل الاحـداث، وانمـا تعليل تقديم القرابين للاله . وواضح أن غرض المؤلف فى نقش أبرهة تسجيل الاحداث المهمة . وجدير كل الجدارة بالملاحظة أن هذه الطريقة فى التسـجيل غير مأمونة . إذ يذكر الملك ، مؤلفه ، فى نقش طويل مهم نشر حديثا ،

كيف أزال جميع الاسطر التى نقشها ملك مهزوم فى قصوره ومعابده . ولا بد أن هذه الاسطر كانت تحتوى على سجلات مملكة غير مشهورة ، هى أوسان .

وجدير بالملاحظة أن الاحداث تؤرخ فى نقش أبرهة بالشهر والسنة ، دون أن يخصص أى يوم من الشهر . ويبدو أن ذلك يتفق مع الاشتقاق العادى لكلمة « تاريخ » ، التى يفترض الباحثون فى أصول اللغة أنها آتية من الكلمة السريانية « إرَخ » التى تعنى « شهرا » .

ولمحة واحدة إلى هذه النقوش كافية لتبين لنا لماذا لم يعن المسلمون الأولون بمثل هذه السجلات لماضيهم . إذ أن ما تسجله ليس تاريخا قبليا أو وطنيا مباشرا ، كما نرى ، وإنما النعم التى أنعم بها إله خيالى ، وما قوبلت به من شعائر وثنية . ولا يمكن لاسماء هذه الآلهة نفسها إلا أن تسبب الذعر أو التسخيف : ويثير تقديم الصور المشاعر نفسها . وإذا كان حقا أن اليهودية انتشرت فى جنوب بلاد العرب بين العصور الوثنية والمسيحية ، فإن مسلك ذلك الدين حيال الآلهة والصور الوثنية من جميع الاصناف لا يقل عداء عن الإسلام الأول : فالجمهور قد تعلم طرح مثل هذه الآثار قبل أن يسود الإسلام بزمن طويل . وتماثلها فى الكراهة، النقوش المسيحية ذات الاهمية التى قلما يستطيع الباحث الحديث أن يبالغ فى قدرها : لأن من الواضح أن الاستعمار الحبشى لم يترك فى جنوب بلاد العرب ذكريات حميدة أو شاكرة له . بل كانوا ينظرون فى فخر واعتراف بالجميل إلى عمل سيف بن ذى يزن المجيد فى طرد هؤلاء الغزاة بمعونة الفرس : ويظن أن عبد المطلب جد النبى رأس وفدا إلى اليمن لتهنئة الفاتح ، ويدعى الباحثون الاحتفاظ بخطبة قالها فى تلك المناسبة . ولكن العلم الحديث الذى لا يخاف تجدد أية عقيدة وثنية مهملة يعلق قيمة عالية على الوثائق التى طرحت فى أجواء الغموض عندما ظهر الإسلام بحكم

طبيعة الظروف عندئذ . وفى الامكان ، بسبب العدد الكبير من النقوش التى عثر عليها ونسخت فى جنوب بلاد العرب ، من ممالك مختلفة وأسرات مختلفة ، ولا زال كثير منها ينتظر النشر، على حين من المرجح أن غيرها لا يزال ينتظر من يكتشفه ؛ فى الامكان جمع تاريخ تلك المنطقة بطريقة لم يكن من المستطاع الاستشراف إليها قبل أن تبدأ هذه الاستكشافات . وجدير بالملاحظة أن الالفباء الحميرية ، كما تسمى ، يبدو أنها كانت مستعملة فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، إذ عثر حديثا على نقوش مدونة بذلك الخط فى شمال شرقى بلاد العرب ، بجوار الكويت ، وفى الشمال الغربى منها ، بجوار مدائن صالح، التى اكتشف فيها كثير من الخطوط . ومع ذلك لم تكتشف نقوش تاريخية ذات قيمة شبيهة بقيمة التواريخ إلا فى جنوب بلاد العرب . ولعل سبب ذلك أن التنظيم السياسى لتلك المنطقة كان أكثر تطورا كثيرا ، وأن العمليات كانت تجرى فيه على نطاق أوسع من الأقاليم الأخرى فى شبه الجزيرة ، التى نجد أن النصوص التى عثر عليها فيها عبارة عن نقوش متواضعة النطاق من شواهد قبور أو قوائم بأعلام أو نذور .

وإذا عددنا أعمال الملوك والمجالس العامة تاريخا ، فقد نضم إلى النقوش التاريخية ما يسجل منها التعيينات على اختلاف أنواعها ، كتعيين أراض للآلهة أو مزايا لطبقات خاصة ، أو جباية الضرائب أو تنظيم الحقوق فى المياه . ولسوء الحظ أن اللغة فى معظم الاحوال تواجهنا بصعوبات خطيرة جدا : فليس لدينا نحو ولا معجم ، وإنما نعتمد على صدفة ورود كلمة ما فى عدد كاف من النصوص المختلفة لنتمكن من اكتشاف معناها مع شيء من التأكد . أضف إلى ذلك أن مجال هذه الدول الجاهلية غير يقينى جدا ، بسبب تغيير الاسماء المحلية ، وإن كنا لا نملك بعض النقوش حسب ، عن إحدى الممالك ، وهى أوسان ، بل لدينا مجموعة من

التماثيل الصغيرة المنقوشة التى تحفظ صور عدة أفراد من الاسرة المالكة . ويلاحظ سترابو الجغرافى ، الذين ندين له بوصف حملة اليـــوس جلوس **Aelius Gallus** الفاشـــلة ، ســرعة تغــير الاسماء فى بلاد العرب وما ينتج عن ذلك من صعوبات جغرافية .

وبقيت المواد لترجع إليها التواريخ ، ما بقيت هذه النقوش، وما عرفت اللغة المدونــة بهـــا ، وإن لم تؤلف تواريخ فعلية . وكان لدى عرب الجنوب فى الجاهلية حقبة ، كما رأينا ، ذات أهمية أولية لتدوين الاحداث . ورأى جلازر **Glaser** أنها معاصــرة لسنة ١١٥ ق . م . ولا شك أنها حقبة مهمة فى تاريخ الدولة السبئية . وعــلى الرغم من عدم تأريخ كثير من النقوش التى لا حظناها ، نستطيع الحصول عـــلى الاتصـــال والاســـتمرار مـــن أسماء الملوك ، الذين يذكرون آباءهم عادة ، وأجدادهم أحيانا ، بل أجدادهم الاولين .

وربما قيل إن التاريخ الممكن كشف اللثام عنه من هذه النصوص سيكون فى بعـــض الجوانب أقل قيمة مما تمدنا به التواريخ الإسلامية ، وأكثر اختلافا فى بعضها الآخــــــر . وتدل النصوص التى مثل بها على عمليات تافهة : فإن كانت عبارة « ذبح رجلا » صادقة تماما ، لم تكن الحملات المدونة أكبر من الغارات القبلية التى تســـجلها الحماســـة ومـــا شابهها من كتب . وقد ألفنا أن نرى قوائم الخسائر فى الحروب الصغيرة بين الجمهوريات الإغريقية القديمة تضم المئات أو العشرات على الأقـــــل . ولكـــن النقوش القتبانيـــــة التى نشرها وفسرها رودو كناكس **Rhodokanakis** تكشـــف عن نظام سياسى معقد لا يوحى البتة بأى نظام قبلى بدائـــى. إذ نقـــرأ فيهـــا عـــن مجالس (للرأى) تبصرية وتشريعية ، نجد أمثالها فى مـــنظمات الدول الهلينية . ويقتضى ما يسميه رودو كناكس « مبدأ الاعلان » ،

أى عملية نقش أعمال هذه المجالس على الحجر ووضعها حيث يمكن قراءتها قراءة عامة ، يقتضى أننا نتكلم عن أمة قارئة ، ذات منظمات سياسية تكشف عن صنف من التقدم لا يمكن بلوغه إلا خلال مراحل لعله من الممكن أن نستعيد قصتها .

وبينما تتيح هذه النقوش الفرصة لاجراء أبحاث مغرية فى فروع مختلفة من القانون والسياسة ، تمدنا أيضا بمعلومات نفيسة عن أديان الدول القديمة ، وتلقى بعض الضوء على ما وقع فى المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة من تمهيد للإسلام . وعندما ظهر البحث عن القديم فى العصر الأموى والعباسى الأول ، بذلت المحاولات لإعادة تبين العقائد الوثنية القديمة ، ويمثل تلك المحاولة كتاب الاصنام لابن الكلبى ، الذى سيقابلنا فيما بعد . ولم تكن الآلهة المعبودة فى جنوب بلاد العرب هى الآلهة المعبودة فى الحجاز، التى نستطيع أن نجد بعضها فى النقوش النبطية فى الشمال. وتتردد أمامنا ، فى نقوش الجنوب ، الآلهة ، التى لا نستطيع النطق بأسمائها، وطبقات الآلهة ، التى لا نستطيع ان نتبين مرتبتها النسبية الآن . ويعزى إليهم، كما قد رأينا ، النجاح فى الحرب : ومن ثم تسجيل الحوليات ، كما لاحظنا، القرابين أو الآثار التى اكتسبتها بخدماتها . ومن الممكن استنباط أشياء عن نظام العقائد ؛ وعن الاشخاص الأوثق اتصالا بالعبادة من غيرهم ؛ وعن وحيهم ، وعن الطريقة التى يحصل بها على أجوبة الاسئلة : وهى أحيانا شديدة التعقيد ، دالة على الصلات الغامضة بين الاضرحة المختلفة . ويبدو أن الآلهة كانت هنا أجدادا للملوك كما كانت الآلهة فى بلاد الإغريق .

وأية مجموعة من المعلومات التاريخية يمكن استخراجها من نصوص لم يقصد منها أن تمدنا بها ! وسيادة ألفباء واحدة ؛ مهيأة تهيئا بارعا للغة التى تستخدمها ، فى جميع شبة الجزيرة كافية لأن تمدنا بنتائج هامة . فلا بد أن جميع شبه الجزيرة وقع

فى زمـــن مـــا تحت سيطرة أمة متعلمة واحدة ، أو لا بد أن أمة ما حصلت على التفوق الفكرى فثقفت غيرها . وما عرفه الإغريق القدماء عن بلاد العرب حصلوا عليه إما من قصص الرحالة أو من الارتياد العلمى المنظم فى عهد الاسكندر الأكبر، وقـــد حصلوا على معلومات أبانت النقوش أنها صحيحة صحة عجيبة . ولكن ما عثرنا عليه من عملات وتماثيل صغيرة يدل على اتصال ببلاد الإغريق القديمة أوثق ممـــا ذكر المؤرخون الإغريق . ويتجلى تأثير أثينا فى العملات المكتشفة فى اليمن : وهـــو ظاهر فى فن النحت، الشبيه بالفن السابق على القديم **Pre-classical** أكثر مـــن شبهه بالفن القديم **Classical** . وتشيع فيه صور الملوك ، ونقوش الحيوانات والطيور، وبعضها حسن النقش : ولكننا لم نجد بعد صورا لآلهة وإلاهات . وتمدنا بقايـــا المعـــابد والقصور ، والنقوش التى كانت عليها ذات مرة ؛ بآثار من الآثار المعمارية المتصورة على نطاق واسع .

وتحـــل الأعلام فى النقوش كثيرا من المشاكل التى تواجه دارس التوارة . إذ تقابلـــنا هـــنا ألفـــاظ وعبارات ، لم تعرفها العربية الفصحى ، ولكنها ترد فى لغة فلســـطين القديمة . وتجد الاسماء التى فقدت معانيها فى السجل الانجيلى ، وفسرت أحيانـــا تفســـيرا خاطئا ، شرحا بسيطا هنا . وتوجد الاسماء القديمة للآلهة العربية متوارية عن الانظار فى الاسماء العبرية التىلم يشك فى وجودها فيها إطلاقا : بل تمدنا أسماء العهد الجديد نفسها بمثال لهذا . فقد سميت كلُوبا أو حلَـــفَى باسم إله وثنى شأنها شأن مُرْدَخاى .

ولكـــن يأتى عهد ، كما رأينا ، تختفى فيه الآلهة القديمة من النقوش، ويظهر عوضا عنها اسم الرحمن الدال علىالتوحيد ، والسائد على بعض السور الاولى من القرآن ، وترد عبارات مسيحية فى نقش متأخر ، قريب من مبدأ الإسلام . والبقايا

القليلة التى رأت الضوء من النقوش التوحيدية ذات أهمية بالغة لسبقها الالفاظ القرآنية خاصة ، وإن لم يظهر على وثنية النصوص القديمة ما يربط بينها فى وضوح وبين الوثنية التى يعارضها القرآن . وتظن الروايات المأثورة أن التوحيد الذى سبق المسيحية فى جنوب بلاد العرب كان يهوديا ، بل تحتفظ السجلات المسيحية الإغريقية بمناقشات دارت بين المسيحيين واليهود ، يظن أنها كانت فى تلك المناطق. ومع ذلك يبين توحيد النقوش عن شبه قليل باليهودية : ولا نستطيع أن نبرر ذهابنا إلى أنهما دين واحد. ولعل سيادة دين توحيدى ما فى جنوب بلاد العرب قبل فرض الغازى الحبشى المسيحية هى التى تفسر السهولة الظاهرة التى أعتنُق بها الإسلام فى هذه المنطقة .

وإذن فلدينا حق تصنيف مؤلفى هذه النصوص القديمة مع المؤرخين العرب . وإن لم تكن اللغات التى استعملوها عربية المسلمين ، ووجب أن نستنبط أن مؤلفيها كانوا يرفضون أن يطلق عليهم لفظ العرب، الذى يبدو أنه كان يطلق عندهم علىالبدو . أما النقوش المؤرخة فترجع ، كما قد رأينا ، إلى حقبة حديثة نسبيا . واختلفت آراء الخبراء فى مدى رجوع هذه النصوص إلى أكثر من ١١٥ ق ٠ م . كما اختلفت فى تتابع ومجال الامبراطوريات أو الدول التى اكتشفوا وجودها ، وترك بعضها آثار غامضة فى السجلات الانجيلية أو القديمة أو النقوش المسمارية .

ولا أستطيع أن أتخيل ميدانا للبحث أكثر جاذبية للباحث المسلم الذى يرغب أن يكون رحالة ورائدا من جنوب بلاد العرب . ومن الممكن أن العراقيل التى يقال إنها تواجه الرائد الأوروبى فى ذلك القطر مبالغ فيها : فلا تتفق أقوال الرحالة فى تلك المسألة . ولا شك أن الرحالة المسلم لن يعوقه كثير من العقبات التى يشكو

مـــنها بعـــض الرحالة . ومن المتعذر أن نظن أن الرحالة الأوروبيين القلائل الذين زاروا هـــذه المـــنطقة استطاعوا أن يأتوا على ذخائرها الأثرية ، الكثيرة المتنوعة ، بمقارنـــتها بما تركته مدن الشام الفينيقية ، أو قرطاجنة العاصمة القديمة مثلا . فلقد خـــلفت دولـــة قتبان الغامضة وحدها من آثار منظماتها، وقوانين مجالسها النيابية وأعمـــال ملوكها أكثر مما خلفته صيدا المشهورة أو قرطاجنة الأكثر شهرة . وإن الســـجل المحفـــور على حجر أو نحاس يتصل به ما يجعلنا أوثق اتصالا بالماضي من الرواية المنقولة شفاها من جيل إلى جيل أو التي ينقلها كتبة متعاقبون من نسخة إلى نســـخة . ويقـــول شـــاعر ، مقارنا بين مدائحه والجوائز التي أخذها أو يؤمل أن يأخذهـــــــا:

وفي تـــلك الاحـــوال ، لم تضع جوائز شكر الجميل ، وإن وجهت توجيها خاطئا ، وإنما بقيت على العصور .

۞۞۞۞۞